

● الثقافة والاستبداد.. واقصنا المعاصر ٢-١

■ الشبخ زكريا داوود*

ينطلق القرآن الكريم لبناء المجتمع الإنساني من خلال ركيزتين أساسيتين هما: التمكين والتكريم، ومن خلال هاتين الركيزتين تنتظم فلسفة إسلامية عريقة، ويبني الدين قواعده وأصوله وتقوم كل الأسس والمناشط الحياتية انطلاقاً منهما، بل إن القرآن الكريم يصوغ مستقبل الحق من خلال التأكيد على حضور هاتين المفردتين، فعندما يتحدث القرآن عن الوعد القادم يبشر بمبدأ التمكين الذي يشكل الإطار العام للحريات في النظرة القرآنية، ولعل الآيات التالية توضح أهمية مبدأ التمكين في بناء الماضي وتطوير وتشكيل الواقع وبناء المستقبل.

قال تعالى في كتابه وهو يتحدث عن الأقوام الماضية الذين أساءوا استخدام مبدأ الحرية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّانُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^(١).

وقال تعالى في سورة القصص وهو يرد على مزاعم كفار قريش الذين ادَّعوا أن قبولهم للدعوة يحد من المكانة الاقتصادية لمكة المكرمة، ليؤكد على العكس من ذلك أن تمكينهم من حرية التصرفات ورسم السياسات المالية كل ذلك منة ونعمة من الخالق: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبَّحِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَىٰ إِلَيْهِ

* عالم دين وباحث، رئيس التحرير، السعودية.

تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾.

وعندما يتحدث رب العزة عن قيام حكومة الحق يركز على مبدأ التمكين الذي يحمله القرآن الكثير من الشحنات الأخلاقية، ليؤكد أن هذا المبدأ الرباني يحمل معه أطراً وقواعد وآليات التطبيق، ليشكل التمكين وسيلة للحق، وليشكل الحق الإطار العام لمبدأ التمكين: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَتَمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٣).

إن التمكين والتكريم من أهم أسس بناء المجتمع الحر، فالشعور بالكرامة والتميز يشعر الإنسان بقيمته وأهمية جهده، لتعزز هذه القيمة وتكرس مبدأ الرقابة الذاتية أمام المنزلقات، لأن الكرم حسن السجية واجتتاب الدنية، والكريم من كرمت عليه نفسه وهانت عليه شهوته، ومن كرمت نفسه صغرت الدنيا في عينه (٤)، كل تلك وغيرها محددات لمبدأ الكرامة، الذي يشكل هو والحرية أي التمكين أهم ركائز بناء مجتمع متحضر.

والعكس تماماً، فعندما يستشري الظلم والطغيان والاستبداد، فإن ذلك يدل على وجود خلل في نظام القيم الأخلاقية والدينية في المجتمع، وبالرغم من أن القرآن نزل ليكرس قيم التداول للسلطة والتبشير بالحرية والشورى في مناشط المجتمع العامة والخاصة، إلا أن أكثر القيم السلبية خطورة وحضوراً في تاريخنا وواقعنا المعاصر هو الاستبداد بكل أشكاله وصوره، فلا يكاد يخلو تاريخنا من تحكم نظم التفرد بالسلطة والاستئثار بالثروات العامة، حتى غدا شكل السلطة في المخيال العربي والإسلامي يتلازم مع وجود الحاكم الفرد الذي لا شريك له.

وقد أدى انتشار النظم الاستبدادية إلى نشر نوعين من الثقافة صاغت فيما بعد العقلية العربية التاريخية والمعاصرة: ثقافة الخضوع والاستسلام. وثقافة العزلة والهروب. ولخطورة هذه الثقافة على التطور الاجتماعي وتنمية موارد الإنسان المعنوية والمادية، بدأ القرآن مشروعه في بناء الإنسان من خلال التركيز على الأسس العامة التي تصوغ شخصية إنسانية كريمة ومجتمعاً مديناً يشعر فيه أفرادها بتلك المنحة الربانية وهي الكرامة، لأن منطلق البناء الحقيقي يبدأ في النظرة القرآنية من خلال شعور الإنسان بكرامته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (٥).

ويؤدي هذا الشعور إلى حراك متواصل من الإنسان في كل مراحل حياته، وأول ما يريد تحقيقه هو ممارسة حرিতে في شتى جوانبها، لكن المشكلة التي يعاني منها الإنسان في كل تاريخه وواقعنا المعاصر هو قدرة النظم الاستبدادية على تجديد نفسها وصياغة ثقافة

تكرسها، ولعل أحد العوامل التي تساعد الاستبداد على تجديد نفسه هو القابلية المجتمعية للخضوع والاستسلام.

فالقراءن الكريم عندما يستعرض التاريخ السياسي والاجتماعي للإنسان يؤكد على المسؤولية الشخصية بالنسبة لصنع الحاضر والمستقبل، فالدنيا هي صناعة إنسانية وكذا الآخرة، أي أن الإنسان هو الذي يشكل واقعه بتفاصيله ومنعطفاته، كما أنه هو الذي يحدد نوعية مصيره في الجانب الآخر من الحياة، ويدخل النظام السياسي والاجتماعي ضمن الاختيارات التي تتحدد بفعل إرادة الإنسان، ولعل الآيات التالية من سورة الصافات توضح هذه الصورة بشكل دقيق عندما تتحدث عن مجتمع مستسلم خاضع بإرادته ليقوم المتغلب بفرض قوانينه وثقافته وسلطته.

قال تعالى: ﴿ وَقَفُّوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ * بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاتُقُونَ * فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ (١).

وفي سورة البقرة يستعرض القرآن الكريم أسباب وعوامل تشكل أرضية ثقافة الاستعباد، ويؤكد على أن الاستبداد لا ينمو في المجتمع ولا تقبله الطباع بصورة مفاجئة، بل ينسل للواقع من خلال منهج وبشكل تدريجي، ولعل مفردة «خطوات الشيطان» تبرز لنا الملامح العامة لذلك الفكر وتلك الثقافة وتوحي بأن تلك الثقافة تتحول إلى منهج يتبعه المجتمع، وأهم ما ترشدنا إليه هو أن الاستبداد ليس صناعة فردية، كما أنه لا ينمو في محيط وبيئة تربط منهج الاتباع بالوحي، لذا يمكننا القول: إن الثقافة التي تساعد على نمو نظم الاستبداد هي التي تحكم الذوق البشري في التشريع والتقنين سواء في الموضوعات الفقهية أو القوانين التي تُسيّر حياة الناس.

إن هذه الثقافة تجعل البشر إلهاً، ومن ثم تنظم الحياة وفق إرادة هذا الإله المزعوم ليكون هو الذي يتحكم في القدر ويبيده القضاء. ولعل الشاعر العربي يبرز حالة التأليه التي وصلت إليها المجتمعات العربية في تاريخنا، ليمثل هذا التأليه أبرز صور الاستبداد:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكانما أنت النبي محمد — وكانما أنصارك الأنصار

قال تعالى وهو يبرز لنا ملامح هذا التيار الاجتماعي الذي يساهم في صناعة الاستبداد: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ

أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَتَنْبَرَأْ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٧﴾.

إن الابتعاد عن شريعة الله يكرس عند الإنسان قابلية الخضوع للاستبداد وصناعته، ولعل هذه الآيات تبرز لنا أن الاستبداد ليس حالة فردية فقط، بل يتبلور ليشكل طغياناً اجتماعياً، ومع أن الصورة الأبرز في تاريخ الإنسان وواقعه المعاصر هو الاستبداد الفردي إلا أن تلك الحالة الفردية تتحول لتصبح حالة عامة، وأخطر ما يقوم به الاستبداد هو تحوله من حالة فردية إلى منهج فكري يكرس قابلية المجتمع للاستبداد.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٨﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩﴾.

يؤدي تغلغل ثقافة الخضوع لغير الله والاستسلام لإرادة الكبراء والشعور بالقهر والضعف أمام السلطان المتجبر إلى إقصاء مفاهيم مثل الحرية والمشاركة والتعاقد والتداول للسلطة والحوار والتعايش، ليصبح الإكراه الديني والسياسي والثقافي والاجتماعي هو الأسلوب الأمثل الذي يمارسه الأقوياء تجاه الضعفاء وبالتعبير القرآني المتبوع تجاه التابع، ومع الزمن تصبح تلك الممارسات عقيدة دينية تكرس نظرة الحاكم المتأله، لتشكل قاموساً دينياً يزخر بمفاهيم كالطاعة، والولاء، وتقوم هنا المؤسسة الدينية لتجعل كل تلك المفاهيم جزءاً من الدين بل جوهره، فتصبح الطاعة للسلطان المتجبر امتداداً لطاعة الخالق.

ولدت تلك الممارسات والمقولات وهذا القبول من المجتمع الشرقي لنظم الاستبداد نظرية جعلت الكثير من الباحثين يعتقدون أن الشخصية العربية والإنسان المسلم والشرقي عموماً أكثر قبولاً للاستعباد بشتى أشكاله، ولعل أول من ادعى أن الشرق يمتلك القابلية الذاتية للخضوع والاستعباد هو أرسطو الذي ذهب إلى أن الشرقي يولد وفي طبيعته الشعور بالعبودية فهو لا يملك أبداً القدرة على الانفكاك من طبيعته الذاتية، وقد تلقف فلاسفة الغرب هذه النظرية لتتأصل عند متسيكو وهيغل وماركس وغيرهم.

هذه النظرة سطحية ولا تمثل الحقيقة أبداً، إذ أن الإنسان في الفكر الإسلامي بغض النظر عن لونه أو هويته أو دينه أو عرقه أو طائفته يعيش الحرية ويكره الحجر عليها أو تقييدها، فالإنسان الأصل فيه الحرية، ومن هنا بدأ المشروع الإسلامي في المجتمع العربي من خلال الدعوة للحرية ورفع القيود، ولعل الاختلاف بين المنهجين الإلهي والبشري هو أن الأول يؤصل للحرية بشكلها الكامل بينما البشر يصادر تلك الحريات تحت ذرائع عديدة كما نرى ذلك في واقع المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١٠).

وأخيراً نقول: إن الاستبداد والتسلط بمختلف ألوانه وأشكاله هو شيء أعمى يسير عكس حركة التاريخ والحضارة والحياة الإنسانية الطبيعية.. لأنه يقف على طرف نقيض من حرية الإنسان ومن قدرته على تحقيق الاختيار السليم، بل إنه يشل طاقة التفكير واستخدام العقل والفطرة الصافية عند الإنسان، ويرهن سعيه للمجهول، ويجعله أسيراً بيد الجهل والتخلف.. وهنا تقع الكارثة الكبرى عندما يفقد هذا الإنسان حريته لأنه يفقد معها كل شيء جميل في الحياة، إنه يفقد العزة والكرامة والأخلاق والعلم، وبالتالي يكون مصيره الموت المحتم أو العيش على هامش الحياة والوجود^(١١).

الاستبداد.. معانيه ومرادفاته

مع أن الاستبداد من الظواهر الملموسة والمعاشة في كل ثنايا واقصنا المعاصر فضلاً عن تاريخنا الذي حفل بمسيرة متواصلة للنظم الاستبدادية، إلا أن من الضروري جداً البحث عن مدلولات اللفظ، لأننا نريد المساهمة في نشر نور المعرفة الحقيقية، التي كبتها ثقافة التضليل التي مارسها الآلة الإعلامية لتلك النظم التي تربعت على الثقافة العربية قروناً، حتى استطاعت أن تصوغ عقلية عربية تناصر وتدافع عن تلك النظم، أي أنها استطاعت أن تحول الضحية إلى مدافع عن الجلاد!

فعندما نشاهد الآلاف تبكي عند هلاك أحد طغاة العرب المعاصرين، والذين رحلوا قبل وقت قصير أو عندما نشاهد المئات وهي ترفع صور للطغاة في مسيرات تأييدية، هنا لا بد أن نتساءل بمرارة هل العقل العربي يمجّد الحكم المطلق؟ هل هناك طبيعة ذاتية تجعل من العقل العربي أداة طبيعة لتضليل الإعلام السلطوي المستبد؟

لماذا نشاهد الشعوب التي تحيط بنا تسترجع حرياتنا، فتجوب الشوارع متظاهرة منددة بأساليب الحكم المستبد، فتسقط حكومة مستبدة في ألمانيا الشرقية، وحكم ديكتاتوري هناك، وسلطة مستبدة هنا، وحتى في الدول الأوروبية المتقدمة والديمقراطية عندما تسن الحكومات قوانين لا تقبل بها الشعوب فإنها تنتفض لتسقطها، كما رأينا ذلك في أسبانيا التي صوتت برفض الدستور الأوروبي وكذا فرنسا التي حذا الشعب الفرنسي حذوها.

ومع أن المعرفة الوحيانية ناضلت كثيراً لتكوين مفاهيم جديدة تصوغ العقل العربي لتمهد طريق التمدن والتقدم أمامه إلا أن انتكاسته بدأت كما اعتقد منذ تحول السلطة عن أهل البيت (عليهم السلام) الذين كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قائدهم، فقد أثبتت

تجربة علي عليه السلام ومقولاته التي بدأ بها حكمه أنه الرائد الحق لديمقراطية حقيقية وواقعية وناضجة، ولعل التجربة السياسية التي سبقت حكمه شكلت منعطفاً خطراً في قبول العقل العربي بسلطة الأمر الواقع، حيث كانت كل السلطات التي سبقت حكم علي عليه السلام تفقد المشروعية الشعبية الحقيقية، فلم يكن هناك إجماع شعبي، ولم تكن طريقة الاختيار شورى، ذلك المبدأ الذي مارسه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعمل به في كل منعطفات حياته. فمن خطبة له عليه السلام لبعض أصحابه وقد سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟

فقال: يا أبا بني أسد إنك لقلق الوضين ترسل في غير سدد، ولك بعد ذمامة الصهر وحق المسألة، وقد استعلمت فاعلم: أما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً، والأشدون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نوطاً، فإنها كانت أثرة شحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين، والحكم لله والمعود إليه القيامة ودع عنك نهباً صيح في حجراته ^(١٢). من هنا تكمن الضرورة لتعريف معنى الاستبداد لنحكم على كل تلك التجارب، ولنرى حقيقة قربها منه أو بعدها عنه.

يصعب القول إن ظاهرة «الاستبداد» قد تأتت عن فراغ، إنما تصنف ضمن الظواهر الاجتماعية، ولا تنحصر ممارستها عند مستوى معين إنما تتوزع في مستويات مختلفة بدءاً من البنى المؤسسية الفوقية (Super Structure) التي يعد نظام الحكم جزءاً منها، مروراً بالبنى المؤسسية التحتية (Sub Structure) التي تمثلها مؤسسات المجتمع المدني، وانتهاءً بسلوكية بعض أفراد المجتمع، وغالباً ما نجد أن هذه التراكمات الهيكلية تشكل في مجملها إشكالية استبدادية على صعيد المجتمع برمتها، وبعبارة أخرى إنه يصعب معالجة الاستبداد عند مستوى معين دون معالجاته في المستويات الأخرى في الوقت نفسه، وعليه يمكن تمثيل محصلة هذه الظاهرة بمصفوفة ذات متغيرات متداخلة فيما بين المستويات المختلفة من جانب، ومترابطة من حيث التراكم السلوكي من جانب آخر، وقد عرفها (الحلبي، ٢٠٠٤) بأنها ثمرة مجموعة مركبة من القوى والبواعث المختلفة في طبيعتها، المتفاوتة في درجات تأثيرها، المتشكلة بظروف المكان والزمان.

وقد تداخلت الكثير من المعاني كترادفات في تفسير هذه الظاهرة مثل الطغيان والاستبداد والدكتاتورية والفساد وأخرى غيرها رغم أن تأصيلها اللغوي والمفاهيمي يختلف نسبياً بين ظاهرة وأخرى، فالطغيان يشير إلى علو الشيء وتجاوزه عن حدوده المعيارية كأن يقال «طغى الماء»، وقد أشير إليها في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ وعرفه أرسطو بأنه صورة الحكم الفردي بممارسة السلطة دون رقيب ولا حسيب، في حين أن أول من استخدم كلمة «الاستبداد» (منتسيكيو ١٦٨٩-١٧٥٥) قاصداً نظام الحكم المعتمد على السلوكيات المنحرفة للفرد القائم على إدارة النظام المذكور، وبعبارة أخرى إن

الفرد الحاكم المستبد منفرد برأيه وغير مقيد في تصرفه سواء بالقانون أو قواعد العدل أو العرف. وأخذ مفهوم هذه الظاهرة يتطور منذ ذلك الزمن بسبب اتساع انتشاره على مساحة جغرافية واسعة من العالم، وأصبح مفهوم «الدكتاتورية» يعبر عن الحالة السياسية المنفردة للحاكم دون الالتزام بالدستور أو القوانين النافذة في المجتمع، وأصبح المجتمع يتسم بالشمولية حتى يسهل على الدكتاتورية إدارة الحكم مركزياً ويتمكن من ممارسة حالة الاستبداد بالمجتمع، وقد ساعدت التطورات الإلكترونية والفضائية في الزمن المعاصر من إحكام الأساليب السلطوية في إدارة النظام الاستبدادي وإدامته. وقد بدأ الاستبداد القديم بين القرن السادس والسابع قبل الميلاد، وسادت ملامحه في آسيا الصغرى وانتشر حتى العالم الهيليني، في حين تحدد الاستبداد المعاصر زمنياً مع مطلع الثورة الفرنسية (١٧٨٩) وحتى اليوم^(١٣).

ولكي نصف الشخص أو الحكم بأنه مستبد لابد من توفر الدلائل التالية:

- ١- التسلط الناتج عن قوة وتغلب وقهر للآخر.
- ٢- توارث السلطة دون الرجوع لعامة الناس لأخذ آرائهم.
- ٣- فقدان القانون العام «الدستور» الذي ينظم ويوضح صلاحيات الحاكم والمحكوم.
- ٤- فقدان القدرة على الاعتراض على قرارات السلطة.
- ٥- إلغاء حق مشاركة الأمة في صنع القرارات، ووظيفة العامة التلقي والقبول فقط، ووظيفة الحاكم التشريع والقهر على التطبيق.
- ٦- انعدام حريات التعبير عن الآراء السياسية أو الدينية المخالفة لرأي المؤسسة المتحالفة مع السلطة.
- ٧- احتكار الموارد الاقتصادية وتوزيع ثروات الأمة على الأقارب والبطانة.
- ٨- توزيع النفوذ السياسي والإداري لأقاليم البلاد على الأقارب والبطانة، دون الاهتمام بنظام الكفاءة.
- ٩- إكراه الناس على قبول العقيدة الدينية والسياسية للسلطة والمؤسسة الدينية المتحالفة معها.

تمثل تلك النقاط أبرز ملامح السلطة المستبدة في العصر الراهن كما في تاريخنا الماضي، وتتنظم كل تلك النقاط في مفردة الطغيان التي استخدمها القرآن الكريم، ليدل على تجاوز الحد، كما في قوله تعالى في سورة الفجر عندما يتحدث عن مسيرة المجتمعات التي وقع عليها الهلاك، حيث قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَفُوا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾^(١٤).

إن النتيجة الطبيعية لنظام حكم بتلك المواصفات هو الإفساد الكبير الذي سوف

يسري في كل مناحي الحياة، ولعل تسمية الشيطان بالطاغوت في آيات عديدة فيه دلالة مهمة على ضرورة تجنب أسلوب الحكم المطلق الذي يطلق العنان للحاكم كي يفعل ما يشاء وما يشتهي.

على أن الاستبداد كمفردة جاء استخدامها في الثقافة الإسلامية مبكراً، حيث وردت هذه المفردة في أقوال وخطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عند معالجته ظاهرة التفرد التي بدأت تسود العقلية العربية، وتصبغ مجمل التعاطي الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي بين جميع أطراف وفئات الأمة، وقد سعى أمير المؤمنين عليه السلام لمعالجة ظاهرة الاستبداد في كل نواحيها، كما نلاحظ ذلك في الأقوال التالية المنسوبة إليه:

- من استبد برأيه زل ^(١٥).
 - من استبد برأيه خفت وطأته على أعدائه ^(١٦).
 - لا تستبد برأيك فمن استبد برأيه هلك ^(١٧).
 - كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم علينا ^(١٨).
- وهناك العديد من الخطب التي عالج فيها أمير المؤمنين عليه السلام هذه الظاهرة التي أخذت تتغلل لتصبح أسلوب تفكير وسلوك عام، حتى أصبح الاستبداد في العقلية العربية فيما بعد من الفضائل والمآثر الشخصية التي تدل على قوة الشخصية وثباتها، وأصبح التشاور وعدم التفرد بالحكم أو الرأي من نقائص الشخص وخفة عقله.
- يقول عبد الملك بن صالح الهاشمي يذمها: ما استشرت واحداً قط إلا تكبر عليّ وتصاغر له، ودخلته العزة ودخلتني الذلة، فإياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب، واشتبهت عليك المسائل، وأذاك الاستبداد إلى الخطأ الفادح.
- وكان عبد الله بن طاهر يذهب إلى هذا المذهب، ويقول: ما حك جلدك مثل ظفرك، ولئن أخطئ مع الاستبداد ألف خطأ، أحب إليّ من أن أستشير وأرى بعين النقص والحاجة ^(١٩).

وأصبح الاستبداد أسلوب الحكم الأمثل لدى العقلية العربية، فبعد أن حاول علي بن أبي طالب عليه السلام تكريس قيم الحرية والشورى والاختيار في الأمة، ترجع السلطة بالأمة إلى أسلوب التفرد ورفض الشورى، ليصرح الحاكم المستبد أنه سوف يمارس الحكم بطريقة التفرد وعدم قبول النصح أو المشورة فضلاً عن مشاركته في اتخاذ القرار أو اختيار الأمة له.

يقول عبد الملك بن مروان (٢٦ - ٨٦هـ/٦٤٦ - ٧٠٥م) في أول خطبة له وهو يوضح طريقة حكمه ويرسم السياسات العامة التي سوف يسير عليها: أما بعد فإني لست الخليفة المستضعف يعني عثمان، ولا الخليفة المداهن يعني معاوية، ولا الخليفة المأفون يعني يزيد، ألا وإني لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، وإنكم تحفظون أعمال

المهاجرين الأولين، ولا تعملون مثل أعمالهم، وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتسنون أنفسكم والله لا يأمرن أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه^(٢٠).

وعلى الرغم من أن الاستبداد كمفردة لغوية توحى في ثقافتنا المعاصرة بنظرة سلبية لها إلا أن أهل اللغة الذين تعرضوا لها أو لمترادفاتها كانوا حياديين عند عرضهم لمعناها، وإن كان البعض أوحى في تعاطيه معها بكونها صفة مرفوضة ثقافياً، فابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ/١١٦٠-١٢٣٣م) عند عرضه لحديث أمير المؤمنين (عليه السلام) مع أبي بكر (٥٧٣-٦٣٤م/١١٣-١١٣هـ)، الذي وصف ما حدث بالاستبداد، يقول وهو يوضح معنى الاستبداد: استبد بالأمر يستبد به استبداداً إذا تفرد به دون غيره^(٢١).

فهنا نلاحظ ابن الأثير حيادياً في توضيح المعنى، ولعل ذلك سببه الموقف الإيديولوجي الذي يؤمن به تجاه قضية الخلافة، ويقول ابن منظور (٦٣٠-٧١١هـ/١٢٣٢-١٣١١م) في لسان العرب: استبد فلان بكذا أي انفرد به، وفي حديث علي، رضوان الله عليه: كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم علينا. يقال: استبد بالأمر يستبد به استبداداً إذا انفرد به دون غيره، واستبد برأيه: انفرد به^(٢٢).

وفي شرح وتوضيح مفردة أخرى لها إحياءات بمعنى الاستبداد، وبالتحديد مفردة «فأت» يوحى موقف ابن منظور أن مسألة الاستبداد يمكن أن تكون في خانة الباطل الذي يرفضه الأسوياء، إذ يقول: فأت: افتأت علي ما لم أقل: اختلقه، أبو زيد: افتأت الرجل علي افتتأتاً، وهو رجل مفتتت، وذلك إذا قال عليك الباطل، وقال ابن شميل في كتاب المنطق: افتأت فلان علينا يفتتت إذا استبد علينا برأيه، جاء به في باب الهمز، وقال ابن السكيت: افتأت بأمره ورأيه إذا استبد به وانفرد^(٢٣).

وذهب بعض اللغويين لتعريف معنى الاستبداد بجزء معناه، كقول الفيروز آبادي (٧٢٩-٨١٧هـ/١٣٢٩-١٤١٥م)، في تعريفه الاستثنائ بالشيء: أنه الاستبداد به واختصاصه به لنفسه^(٢٤) □

الهوامش:

- (٧) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ١٦٥ - ١٦٨.
 (٨) القرآن الكريم، سورة هود، آية ٥٩.
 (٩) القرآن الكريم، سورة هود آية ٩٦ - ٩٧.
 (١٠) القرآن الكريم، سورة الأعراف، آية ١٥٧.
 (١١) عبدالرحمن، أسعد، دراسة بعنوان: الاستبداد وحكم التغلب في أنظمة الحكم العربية المعاصرة.

- (١) القرآن الكريم، سورة الأنعام آية ٦.
 (٢) القرآن الكريم، سورة القصص، آية ٥٧.
 (٣) القرآن الكريم، سورة القصص، آية ٤ - ٦.
 (٤) الريشهري، محمد، ميزان الحكمة ج ٦ ص ٣٦٨٤.
 (٥) القرآن الكريم، سورة الإسراء آية ٧٠.
 (٦) القرآن الكريم، سورة الصافات، آيات ٢٤ - ٣١.

- (١٢) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة ج ٢ ص ٦٣ شرح محمد عبده.
- (١٣) النجفي، د. سالم توفيق، دراسة بعنوان «متضمنات الماضي ورؤية المستقبل، الاستبداد في نظام الحكم بالعراق».
- (١٤) القرآن الكريم، سورة الفجر آية، ٦ - ١٢.
- (١٥) الواسطي، علي بن محمد الليثي، عيون الحكم والمواعظ، ص ٤٢٩.
- (١٦) المصدر السابق، ص ٤٦٠.
- (١٧) المصدر نفسه، ص ٥٢٨.
- (١٨) ابن الأثير، علي بن محمد، النهاية في غريب الحديث، ج ١ ص ١٠٥.
- (١٩) ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ج ١٨ ص ٣٨٢.
- (٢٠) أبو ريه، محمود، أضواء على السنة المحمدية، ص ١٦٦.
- (٢١) النهاية في غريب الحديث، مصدر سابق.
- (٢٢) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج ٣ ص ٨١.
- (٢٣) المصدر السابق، ج ٢ ص ٦٤.
- (٢٤) الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ج ١ ص ٣٦٢.